رحلات كرد علي وأثرها في أدبه

الأستاذ جمال الدين الألوسي

تحيني إليكم سادتي مشفوعة بالشكر والامتنان لكل من أسهم بإحياء هذه الذكرى الكريمة التي تعطرت أيامها بسيرة المغفور له الرئيس الجليل محمد كرد علي . ومن حقه على الشام ومجمعها ، بل على العرب أجمع أن يحتفوا بذكراه وينشروا سيرته وجهاده وأدبه ويحيوا مؤلفاته بين أبناء العروبة ولاسيما الجيل الصاعد ، ليكون لهم قدوة تعصمهم عن مزالق الأهواء الوافدة ، وتشدهم إلى عروبتهم ومقومات دينهم الحنيف ، تعلمهم سيرته الحافلة بجلائل الأعمال الدأبَ على العمل ، والسعي وراء المعرفة ، والصبر على التحصيل والصدق في الأقوال والأفعال .

وبعد ، فإن الأستاذ الكبير محمد كرد علي يُعد من أعاظم الرجال ، ومن الرواد الذين قامت على جهودهم النهضة العربية الإسلامية الحديثة . كان أمة في رجل كما وصفه عارفو فضله ، جاهد في أحلك الأيام ونافح عن العروبة والإسلام بقلمه وبلسانه وبمقالاته ومؤلفاته ، ونصب نفسه رقيباً لكل من يتصدى للإسلام بغمز أو للعروبة بلمز ، قاوم الاستبداد ولاقى في سبيله الأَلاقي ، من أجل إشاعة الخير ، في عزيمة لا تعرف الخور ، ولا يتسرب إلى نضاله فتور أو حذر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أحال قلمه داعياً إلى الإصلاح الاجتماعي والسياسي، وشدّد النكير على الحكام الظلمة، ودعا إلى محاربة البدع والضلالات، وكتب مدافعاً عن مصالح وطنه؛ وطالب الولاة بالعمران والإصلاح الاجتماعي، ناقداً من غير هوادة سوء إدارة الحاكمين من عثمانيين وفرنسيين فاضحاً خراب ذممهم ناشراً طبائع الاستبداد والمستبدين بهمة عالية، لا تأخذه في الله لومةُ لائم، صريح لا يعرف التقية أو المواربة، مما جرّ عليه الكثير من الخصومات والملاحقات والمتاعب.

كانت نزعة الإصلاح ذات جذور في أعماق نفسه بفضل فطرته وتربيته، ولأساتذته الفضل الأكبر في إذكاء هذه الروح وعلى رأسهم الشيخ طاهر الجزائري، وكان لآراء جمال الدين الأفغاني التي يقرؤها في العروة الوثقى، وما كان يصله من مقالات المصلحين المجددين من أمثال الشيخ محمد عبده ومحمد ابن عبد الوهاب أثرها الفعال في نفسه المطبوعة على حب الخير.

انتقد عصور التخلف والطائفية، وجرّد قلمه لمحاربة شعوذة المشايخ والمشعوذين، يتعقب جهالاتهم وجبّالهم الذين كانوا يضللون الناس بدعاواهم التي ليست من الدين بشيء.

وكانت آراؤه تتسم بالسلفية والنزعة التجددية التي تربّى عليها وأشار إليها في قوله: «منذ فقدنا استقلالنا وقبض على زمام إدارتنا أغراب ليسوا من جنسنا وأحياناً من غير أهل ملتنا ونحلتنا، ويسنّ قوانيننا غيرُنا، وقد يسنون ما لا يلائمنا، ضعفت فينا خلال هذه القرون الطويلة ملكة العلم، وانحططنا في أخلاقنا وتفكيرنا، وابتعدت كل طبقة عن أختها لا تشاركها عواطفها، وكان في هذا المجتمع المنحط طبيعياً أن يأكل القوي الضعيف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأن تغرق البلاد في بحرانٍ من الجهل وإن هبّت تتلمس سبل النجاة لاتهتدي إلى النجاة ».

وسيلته لنشر آرائه :

لم يرَ وسيلة لتحقيق أغراضه السياسية وآرائه الإصلاحية أصلح سبيلًا ولا أقوم مسلكاً من الصحافة ، وقد أولع بها منذ صباه ، مال إلى قراءة الجرائد اليومية والمجلات الشهرية وسنّه لم تتجاوز مرحلة الدراسة الإعدادية ، اشترك في جريدة فرنسية أسبوعية كانت تصدر في باريس اسمها « صديق الريف » ، وولع بقراءة جريدة « لسان الحال » لأن فيها أخباراً طريفة معربة عن الانكليزية ، وكانت تصـــله جرائد مصرية ويعكف على مطالعتها ولا سيا المقتطف ، كما كانت تقع تحت يده جرائد تركية . وما بلغ السادسة عشرة من عمره حتى أخذ بكتب أخباراً ومقالات في الجرائد ، وفي هذا التكوين قال : « ما كنت أظن هذه البداءة تنتهي بي إلى الغرام بالصحافة » .

وطابعه : أن يخلو التحرير من التعقيد ، وأن يكون التعبير واضحاً يهدف إلى المعنى بإيجاز ، يتخير اللفظ السهل ، ويسعى لاستعمال الجملة البليغة ، وأفضل اللفظ عنده ماخفّ على اللسان وراق للسمع ، وتغلب على مقالاته طبيعة الاستقصاء حتى يستوفي المنى الذي يبتغي عرضه على القراء ، حتى عدّ من أصحاب الأساليب ، وقرنه الأستاذ محمد عبد الفتاح في كتابه (أشهر مشاهير أدباء الشرق) بالعقاد وطه حسين ومحمد عبده ، وعدّه الأستاذ جمعة إسماعيل في الأدباء الخمسة أصحابِ الأساليب . وثقافتُه لا تعتمد على الصحافة بقدر ما تعتمد على كتب التراث عربية وفرنسية وتركية ، مكنته فطرته السليمة وذكاؤه الحاد ودراسته المنهجية من عربية وفرنسية وتركية وثقافية لمعارف

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
الجمهورية العربية السورية مجمع اللغة العربية

عصره عربية وشرقية ـ أهّلته في الأخير أن يتبوأ مركزه الأدبي والاجتماعي. قرأ المخطوطات وبحث عنها في خزائن دمشق والقاهرة والآستانة وليدن وروما والاسكوريال، وفي مكتبة الأمير كيتاني، وقرأ ما حققه المستشرقون من كتب التراث. وله صداقات ولقاءات ومراسلات ومساجلات مع الكثيرين منهم، واطلع على ما ألفوه في الإسلام والعرب وكتب في أوهامهم وأخطائهم الفصول المفيدة، قال:

«أهم ما أولعت بمطالعته بعد درس المطبوع من كتب الأدب العربي جانب من المخطوطات التي عثرت عليها من كتب الفلاسفة وعلماء الاجتماع وأحوال الشعب ومدنياتهم، وطالعت بالفرنسية أهم ما كتبه فولتير وروسو ومنتسكيو وسپنسر وتين وسيمون، وتدارست المجلات الفرنسية الأدبية والاجتماعية والتاريخية، وجريت منذ نشأت على قاعدة مطردة لم أتخلف عنها قيد شبر، وهي أن أقرأ أكثر مما أكتب، وقلما دوّنت موضوعاً لم أدرسه في الجملة ولم تتشربه نفسي».

وصفه صديقه الشاعر الكبير شفيق جبري وقد زامله وعمل معه طويلاً، قال:

«لقد خالطته في وزارة المعارف، وكان وزيراً لمعارف سوريا فوقفت على كثير من خصائصه وطباعه ومزاجه، فما عرفت رجلاً أولع بمطالعة الكتب ونعه، فكثيراً ما كان يطلب من أصحاب المكتبات الفرنسية كتباً في أكثر الموضوعات ولا سيما موضوع الاجتماع، وما أذكر أنه كان يمر عليه شهر وأحياناً أسبوع دون أن يطلب كتباً جديدة للمطالعة من باريز وليبسك وروما ولندن» وقال: «إذا خلا إلى نفسه فإنما يخلو إلى مكتبته، وإذا اعتزل دمشق إلى ريفه في الغوطة فإنما يعتزلها ليصغي إلى أحاديث كتاب يجالسه إصغاءه إلى حفيف شجره، وزقزقة طيره، وما عرفنا في عصرنا من غلبت عليه محنة القراءة وشغله الميل إلى التأليف مثل الأستاذ الرئيس».

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

رحــلاته إلى مصر :

دفع به شغفه إلى المعرفة والاطلاع على المدنية الغربية أن يرحل رحلته الأولى إلى مصر أولاً ومنها إلى الغرب وذلك سنة ١٩٠١ ـ قاصداً زيارتها والتعرف على أدبائها ومشاهيرها ومشاهدة عمرانها ، وكانت مصر كعبة الرواد ومنتجع الأحرار من أبناء العروبة ، كما كانت ملجأ المجاهدين ولا سيما أحرار سوريا . قضى في رحلته هذه عشرة شهور عمل فيهـا رئيساً لتحرير جريدة الرائد ، فلمـا انتشر وباء الكوليرا سنة ١٩٠٢ رجـع إلى دمشق فراراً من الوباء ، وعاد إلى مصر سنة ١٩٠٥ ونشر « المقتبس » فتلقّاه القراء بالترحاب والتقدير ، ورحبت الصحافة المصرية بها ، وعن طريقها اكتسب شهرة واسعة إلى شهرته التي اكتسبهـا عن طريق ما كان ينشره في الصحف المصرية ، وأسندت إليه رئاسة تحرير الظاهر بعد شهرين من عمله فيها في حقل المترجمات ، وحين خرج العدد الثاني من المقتبس أطرته المؤيد وأثنت على صاحبه فساعد هذا التقريظ على انتشار المجلة ، لأن صوت المؤيد كان يومها أعلى الأصوات ، وحاول صاحب المؤيد أن يعهد إلى كرد علي رئاسة تحرير المؤيد فاعتذر لارتباطه بجريدة الظاهر ولأن رئيس تحريرها صديق له.

لقد كانت الصحافة مدرسـة كبرى عادت على الأستاذ الرئيس بالمعرفة والدرس العلمي ، وقادته إلى ميادين فسيحة من الثقافة وبوّأته منزلة مرموقة بين رجالات العلم والأدب . في رحلته الأولى تعرف على الإمام محمد عبده قال : « كنت أحضر دروسه في التفسير مرتين في الأسبوع في الرواق العباسي ، وهي المحاضرات التي دأب على إلقائهـــا إلى قبيل وفاته سنة ١٩٠٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« وكنت أغشى مجلسه الخاص في داره بعين شمس مرة في الأسبوع ، وكان واسطة التعريف محمد رشيد رضا صاحب المنار ، ولقيت من الشيخ الإمام أول تشرفي به إطراء وعطفاً ، وقدمني إلى جماعته وأثنى على مقال كنت كتبته في مشروع السكة الحديد - الخط الحجازي - فكان تقريظه للمقال وثناؤه على أفكاره خيرَ تكريم لي في مثل هذا اللقاء في حفل حاشد بالعلماء والكبراء ، وكانت ندوة الإمام خيرَ واسطة لمعرفة طبقات القاهرة تضم العديد من أعيان مصر وعلمائها وفضلائها ، من أمثال محمد المهدي وأحمد الاسكندري والشيخ شاكر ومحمد الخضري ورفيق العظم وعبد العزيز شاويش وحفني ناصف ومحمد ديَّاب وحافظ إبراهيم ، كما كانت للأستاذ كرد علي لقاءات مع رواد مقهى حديقة الأزبكية وكان من روادها المنفلوطي ولطفي جمعة وأحمد فتاح وحافظ عوض وداود بركات ويوسف الخازن وأحمد الألفي وولي الدين يكن وإبراهيم سليم النجار وسليم سركيس وعلي يوسف ، ويوسف وسليمان البستانيين وخليل مطران والشيخ طاهر . ومجلسهم كما وصفه الرئيس - مجمع علمي في مقهى - عادت عليه هذه اللقاءات والصداقات بفوائد أدبية واجتماعية كان مردودها زاداً دسماً لمجلته ولمقالاته التي كان ينشرها في الصحافة المصرية .

رحـــلاته إلى الغرب :

رحل إلى أوربا في فترات مختلفة كان آخرها في سنة ١٩٢٨ وكان من ثمرتها كتابه « غرائب الغرب » وكان أحفلها رحلته إلى إيطاليا « رومة » في سبيل الإعداد والوقوف على المخطوطات لتأليف كتابه الجليل خطط الشام.

فقد كانت أمنيته أن يزور أوربا زيارة درس واستطلاع لحضارة الغرب، ويزور المكتبات ويتعرف على مافيها من كنوز الأجداد من المخطوطات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

التي تسربت إلى مكتبات الغرب ، ولكن أشغاله الكثيرة في الصحافة والكتابة كانت تحول دون تلك الرغبة الملحة إلى أن عطلت المقتبس وطاردته السلطة بأمر الوالي ، بسبب آرائه الإصلاحية ونقده الجريء للولاة والموظفين ، وقد أثارت مقالته في « الوهابية » غضب الوالي وحرش عليه المشايخ واضطر أن يتخفى في قرى الغوطة ويتنقل من قرية لأخرى ، يكمن في النهار ويجدّ السير في الليل ، يواصل سفره حتى وصل بيروت ، فكان له من هذه العطلة الاضطرارية فراغ حفزه أن يجدد العزم للقيام بالرحلة العلمية .

وفي هذه الحادثة وما لاقاه الأستاذ كرد علي من حياة التخفي والخوف وصفه الأمير شكيب أرسلان رحمه الله في قصيدة طويلة مداعباً تارة وناقداً أخرى ، ناقداً عصور الظلم والاستبداد ، مطلعها :

ألا قل لمن في الدجى لم ينمْ طِلابُ المعالي سمير الألمْ

ومنها :

وكم سروة تحت جنح الظلام كَسيرٌ بصدرالأريب انكتمْ
يخاف بها حركات الغصون ويخشى النسيم إذا ما نسَمْ
وإن تُشْدُ ورقاء في أيكة تؤرقه في صوتها والنغَمْ
وكم بات للنجم يرعى إذا أديم السما بالنجوم اتّسَمْ
وطال به الليل حتى غدا يظن عمود الصباح انحطَمْ
ومِن ذُعرِه خال أن النجوم تهدّى إلى مسكه من أمَمْ

ومنها :

وقالوا سينفى إلى رودسٍ وقالوا سيجزى بما قد جَرَمْ
وقد قيل « فزان » من دونه وتلك السموم وتلك الحُمَمْ

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
الجمهورية العربية السورية مجمع اللغة العربية

وبعضٌ بسجنٍ عليه قضى   وبعضٌ بضربٍ عليه حَكَمْ
وكرد عليٌّ غدا عبرةً   ففاتَ ومنه الرجاء انصرَمْ
فيا كردُ لاتحزَنَنْكَ الخطوب   فإن الهموم بقدر الهِمَمْ
ومَن رام أن يتعاطى البيان   توقّع أن يُبتلى بالنِقَمْ
فذي حرفة القول حريفة   وكم أدركت من لبيبٍ وكَمْ

كان جلُّ قصده من رحلاته المعرفة والدراسة والتعرف على معالم المدنية الغربية بالمشاهدة والمقارنة ، وقد تغني مشاهدة واحدة عن قراءة كتاب ، وما كان يشهد معهداً علمياً أو يزور جامعة أو مكتبة عامة أو يبصر حديقة أو معملاً صناعياً إلا وتراه يوازن بينها وبين ما عليه حالنا من التخلف والتأخر والفقر .

وما أثار إعجابه متحف أو مسرح أو مصنع أو مطبعة إلا وتسمعه يتحدث عن أثر الحضارة الغربية وما صنعت لأهلها من النماء والتقدم ، ليخلص من كل ذلك إلى إيقاظ أولي الأمر وينبههم إلى ما عليه أوطاننا العربية وحتى التركية من الجهالة والأمية ، قال : « نحن لا نسجل في رحلاتنا إلا ما تقع عليه أبصارنا ويترامى إلى آذاننا ونمسكه بأيدينا » .

وفي نقده وتوجيهه يفصح عن نزعته الإصلاحية ورغبته في خدمة قومه ، فما ينقل إليهم من معالم المدنية وبواعثها والدعائم التي ترتكز عليها مدنية الغرب إلا بقصد إفادة قومه ، يقول : « إن ما شاهدناه عندهم ليس إلا ثمرة عمل عظيم وجهاد منظم وإرادة قوية وأساس راسخ ، وإذا أردنا أن نبلغ بأمتنا مبلغهم فما علينا إلا أن نمد يدنا لاستخدام جميع القوى الحية في الأمة ، وأن تعمل الحكومة عملاً فعالاً لما فيه إنهاض الشعب » .

وكتابه « غرائب الغرب » حافل بالموضوعات التي تتسم بالجدة وتحتفظ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالطلاوة والموضوعية والفائدة برغم مرور أكثر من ستين سنة على كتابتها.
ورحلات الأستاذ الرئيس المتعددة في الغرب والشرق فيها المتعة والنفع والأدب والتأريخ، ومن أجزلها نفعاً رحلته إلى إيطاليا للانتفاع من مكتبة الأمير كيتاني:

كان الأستاذ رحمه الله يفكر في وضع كتاب مطول يشتمل على تأريخ الشام، يتناول تأريخ سوريا السياسي والجغرافي والعلمي والأدبي، وهو موضوع لا يسمو إلى التفكير به إلا من طبع على علوّ الهمة، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم. ومادة الكتاب مشتتة في المواجع من عربية وغير عربية، ودار في خلده أن يزور أوربا ليراجع مكتباتها، فعرض فكرته على المستشرق « مارتن هارتمن » الألماني وأنه يزمع الرحلة إلى باريز ولندن واكسفورد وكمبرج وليدن وبرلين ورومة والأسكوريال، للبحث في خزاناتها عن المخطوطات العربية، فقال له إن الفكرة حسنة ولكنها غير عملية وتستلزم مالاً كثيراً ووقتاً طويلاً، واقترح عليه أن يرحل إلى روما ويذهب إلى الأمير كايتاني صاحب كتاب تاريخ الإسلام ففي مكتبته مايغنيك: فيها صور شمسية من خزائن العالم، وفيها كل ما خلّفه الثقات من مؤرخي العرب، فزار مصر وحصل على توصية من أحمد زكي باشا إلى كيتاني فقدم عليه وقدم إليه رسالة التوصية، وعرّفه الغاية التي من أجلها يمّم ساحته. رحّب به وسهل مهمته وفتح له أبواب مكتبه وأوصى مساعده المستشرق « جويدي » أن يقوم بمعاونة الأستاذ كرد علي، فكان يقضي في المكتبة كل يوم ساعات ثلاثاً ينهل من مصادرها مدة شهر كامل، فإذا عاد إلى المنزل الذي يسكنه راح يدوّن ويركّب الجزازات ويدون ما فيها حتى ارتوى، ونسخ من مصادرها ما أراد وتم له تنسيق فصول الكتاب ودوّن مادته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

ورتبه حسب الأقاليم ، يبحث في كل إقليم تأريخه وجغرافيته وطوبوغرافيته ، وسمّى كتابه هذا خطط الشام . قال في مقدمته :

« إن المتأخرين زهدوا في التأريخ حتى كادوا لا يفرقون بينه وبين أقاصيص العجائز وموسوعات المخرفين من القصاص والوضاعين ، مما دعا إلى العناية بتجريد هذا الكتاب ما أمكن من المبالغات والخرافات ونخل لباب الوقائع المهمة الثابتة وحذف ما فيه شبهة أو شائبة غلو ، وإن كان منها ما يروق بعضهم ويتفكهون بسماعه ، ويطربون لترداده .

فخاطبت العقل أكثر من العاطفة ، وعنيت في قسم التأريخ السياسي : أبيّن علل الحوادث وتسلسل الكوائن وأستنبط القواعد . والتأريخ ربيب الحرية لا يتصرف على هوى من يكتبه ولا هوى من يقرؤه ، ولا يخضع لأذواق المعاصرين وميولهم ، وما دام موضوعه الاعتبار بالخالي لمعرفة الحالي والآتي فهو جدير بأن يتحرّى فيه الحق ولا يدون سواه ولا يتناغى بغير الواقع » .

خمس وعشرون سنة يجمع مادته ، ويحرر فصوله ، ويسوّد أوراقه ، وينقلها إلى المبيضات بيده ، ولا يعتمد على كاتب أو طابعة ، ١٩٤٣ صفحة من القطع الكبير ، الله وحده يعلم كم عانى في كتابتها وجمع مادتها ، قرأ خلال هذه المدة أكثر من ألف ومائتي كتاب باللغات العربية والفرنسية والتركية ، وقرأ مصورات لا حصر لها وراجع مخطوطات في خطوط مختلفة لا يصبر على فك رموزها إلا من أوتي صبراً وجلداً ، وقد رجا إخواناً له الكتابة في خطط بلدانهم . فاعترف لهم بفضلهم ، ونوّه بعملهم ، وعزا إليهم ما دونوه . وحين قامت الحرب الأولى واشتد أوارها وشغل الناس بويلاتها لم يسع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأستاذ الرئيس إلا أن يطوي صفحات الكتاب ويقفل على أوراقه إلى أن تضع الحرب أوزارها .

ولما انتهت الحرب العالمية الأولى تألفت لجنة من أصحابه وعارفي فضله جمعوا نفقات الطبع ، وفتحوا باب الاشتراك في الشام ومصر والعراق ولبنان وغيرها فجاءت المبالغ تباعاً حتى بلغت زهاء ألف ليرة ذهبية ، وعلى هذا النمط من التعاون تمّ طبع الكتاب ، وكان لأول مرة وربما هي لآخر مرة يطبع كتاب بهذه الطريقة ، طبع من الكتاب ثلاثة آلاف نسخة بيع منه ألفان سددت نفقات الطبع والورق ، وأهدى من الألف الثالثة للمجامع وإلى دور الكتب العامة وإلى العلماء ، ولم يعد عليه مردود الكتاب إلا بجزء ضئيل من النفقات التي أنفقها على شراء الكتب والرحلات ، ناهيك بأتعابه خلال خمس وعشرين سنة من الجهد المتواصل . نقد الكتاب جماعة من العلماء والأدباء فسجل لهم نقدهم وتصويبهم وأغفل المدح والتقريظ وقال : « من طبعي أن يتدرب الناس على حب النقد للفائدة المتوقعة منه للمؤلف وللناس وللعلم ، ولم أنشر في كتبي ولا في المجلات والجرائد التي أكتبها تقريظاً أو شيئاً يشبه المدح في عملي » .

وألحق هذه النقود والتصويبات في آخر الجزء السادس من كتابه ، والناقدون يومئذ إذا ظهر كتاب لكاتب معروف أخذوه بالدرس والنقد والتقريظ ، وشعارهم : « ولا تَنْسَوا الفضلَ بينَكُم » ، وما كان من خلقهم التجريح والتبريح ولا التجهيل والتسفيه ، وإنما نقدهم في سبيل النفع العام والفائدة للقارىء والمؤلف . نقدَه أعلام لهم وزنهم وأقدارهم من مثل : أحمد تيمور وشكيب أرسلان واسكندر معلوف ويعقوب صروف والكرملي وأسد رستم وفيليب حتّي .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكتب الأستاذ الشاعر شفيق جبري في وصفه ما نصه قال: « إن الإنسان إذا ضرب بعينيه في هذا التاريخ، فأول ما يغلب عليه دهشة يدهشها وحيرة يحارها: يدهش من هذه الأمم التي تعاقبت على ديار الشام من أولى العصور، ويحار من هذه اللغات التي تزاحمت فيها، ثم لا يخرج من دهشته وحيرته إلا بهذه النتيجة العجيبة: كيف استطاعت القومية العربية أن تُعفّي على آثار كل القوميات التي تعاقبت على الشام، كيف استطاعت لغة العرب أن تطمس آثار كل اللغات التي تنازعت في هذا الوطن الكبير، فإذا خرج من قراءة خطط الشام بهذه النتيجة علم حينئذٍ مقدار فضل مؤلفه في جمع ما تبعثر من آثار العرب والإسلام، في السياسة والحضارة، حتى ينظمها في مسلك واحد يملأ الإنسان منه قلبه وعقله.

ومؤلفاته والكتب التي أنجز تحقيقها ومحاضراته ومقالاته في التاريخ والأدب والسير والاجتماع والدين وفي الحضارة العربية إنما باعثها الدفاع عن الإسلام والعروبة والردّ على الشعوبية وعلى الاستعمار وأعوانه، ولم يفارقه المداد والقرطاس طوال حياته، وصاحَبه القلم والكتاب حتى وهو في فراش المرض مع الدواء لا يجد عنها غنية أو بديلاً، وحسبه هذا الصرح العظيم – المجمع العلمي – الذي أشاد صرحه، والذي ما زال يشع بالعلم واللغة والأدب والذي يواصل مسيرته المباركة، ويضم هذه النخبة المختارة من رجال العلم والأدب الذين ندبوا أنفسهم لخدمة العروبة والإسلام، وأعطاه من وقته وقلمه وماله وجهده ما جعله مثابة للعلم وملتقى للعلماء والأدباء من سائر أقطار الدنيا شرقية وغربية.

وأخلص مما قدمت إلى أن تلك الرحلات التي رحلها إلى مصر وتركيا والحجاز وإلى أوربا بأوقات متفاوتة وحضر مؤتمر المستشرقين واستمع إلى بحوثهم، يضاف

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إليها تلك اللقاءات مع العلماء والكتاب والشعراء والمستشرقين وما كان يردُّ به على استفهام المستفهمين ويعقب على أخطاء أولئك المستعربين، متعمدين وغير متعمدين، كان مردود هذا اللقاح الفكري والأدبي وممارسة الكتابة المستمرة والقراءة لأمراء البيان أن تميز بأسلوب عربي مبين في الأسلوب والمضمون.

وإليكم سادتي هذه الفقرات، كتبها في عشر الثمانين في مناجاة نفسه، فيها الدلالة على أسلوبه الرفيع، وفيها الدلالة على ما تنطوي عليه نفسه من خُلُقٍ هذّبه الدين وأنضجه العلم، وطبع كوّنه الأدب وصُحبته الكتابَ. وفي هذه المناجاة يبرز أسلوبه الأنيق في الكتابة قال: «يا نفس! هو ذا الحادي يهيب بك لاجتياز المرحلة الأخيرة – دراكِ، وخفّي في خف من أثقالك للحاق بمن تقدموك من الأهل والعشير، فالوقت ضاق، وأنت على أوفازٍ، والمنزل منزل قُلعة. يا نفس! لا تغضبي ولا تعتبي فقد عمّرت طويلاً، ومُتّعتِ كثيراً... واستكثرت من الخلان والمعارف، وسعدت إذ كنت أقرب إلى التفاؤل من التشاؤم، وإلى الرجاء أدنى من القنوط، وإلى السرور أكثر من الغمّ، وعشت في سلطان الرضا طيبةَ الطُعْمةِ، لا يد لأحد عندك. علموك ما كانوا يأملون منه إعدادك للتجارة تَغْتنينَ كما اغتنى أجدادك فأخفق تقديرهم، وهدتك الفطرة لأمور أخرى رفعْتِها فوق كل اعتبار، وصرفت فيها نقدَ عمرك، اعتقاداً منك أن فيها سعادةً لك ولغيرك، أخذت عن أشياخ أدخلوا الملل عليك بدساتير لم حفظوها وما اهتدوا إلى العمل بها، وانصرفت عنهم بشكوكٍ ومعميات ما انحلّ لك بعضها حتى اتصلت بمن خرّجوك فيما غلب عليك، وأصبحت تنظرين في الأمور نظر العارفين، واقتديت بأرباب العقول قبلك فيما لم ينكشف لك سرّه، فسلّمتِ كما سلموا، واستسلمتِ كما استسلموا،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

واغتبطت أن أرضيت هواكِ فيما قرأتِ وبحثتِ ،وفيما سجلتِ ودوّنت .

وحَظّتك الحظ فما ألِفتِ إلاّ أولي الفضل،وما حرصت إلاّ على صداقتهم، ولا اختلفت إلا إلى مجالسهم ، وما شاقك إلا سماع أخبارهم .

وكنت على الأكثر لا تصحبين إلا من تستفيدين من علمه وتجربته، وتفرين من الأحاديث الغثة فرارك من الطعام الواحد والمنظر الواحد والنغم الواحد ، وما كنت كذلك شهد الله في حبك ووفائك ، هان عليك ما أنفقت في الضئيل من المعرفة التي كتب لك تحصيلها ، وكان استغراقك ساعةً واحدةً فيما ولعت به يوازي في نظرك أكثر المسرات والشهوات. درجتِ على بغض الفوضى وحب النظام ، وآثرت ثورة الأفكار على ثورة السلاح، ودققت في حساب يومك وغدك وأيقنت أن لا مجد إلا عن طريق المعرفة فأحرزت لك شهرة سعيت وراءها لأول أمرك ، فلما بلغت ما أربى على رجائك رحت تزهدين فيما صرت إليه ، وتندمين على فترات ضاعت سدى ، وإن أكسبتك مرانة ومرونة وأفادتك عبرة وتجربة . كان يلذك ما ينهال عليك من الضربات في تأييد الحق وتقويم المائل ، حتى صار ذلك فيك خلقاً وجبلّة ، وما عبأت بمن كانوا يحاولون التسلق إلى الشهرة بالحطّ منك ... علمتكِ الأيام التحلم وما كنت حليمة ، وزيّنَتْ لك اللين وكنت جامحةً ، وأخذت من حوادث الدهر دروساً في الصبر والأناة بقدر ما سمح به مزاجك ، وما تقاضيت الناس ما لا يملكون ، وعذرت بعضهم على ما هم فيه ، وما كلّفتِ الأيامَ ضد طباعها ، وما أحببت أن تستثمري أحداً ولا أن يستثمرك أحد ، وقلما أتيت شيئاً وندمتِ عليه ، وما حزنت لرزية في مالٍ ولا جاه بقدر حزنك لفقد الحبيب وفراق الصديق ...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكنتِ تتخلين عن أصحابك في أفراحهم، ولا تتركينهم في أتراحهم... إذا أقبلت الدنيا على الصاحب تبتعدين عنه، وإن أدبرت تكثرين من مواساته.. عاداك من عاداك عداء المتباينين في العقلية والثقافة، ووجهوا إليك من التهم ما كان في وسعك رده لو جوّزتِ إضاعة الوقت في مهاتراتهم، ومما قرفوك به أنك مستبدة فيما يبدو لك، مفرطة في حرية رأيك، حلوة الصداقة مرّة العداوة، ضنينة بجاهك تكثرين من قولِ: لا أكثر من قول: نعم، وهم كانوا يريدونك أن تشهدي للمحق والمبطل، وتدخلي فيما يعنيك ومالا يعنيك، وقاعدتهم أن لا ضرر من العبث بحقوق الجماعة إذا كان منه تنفيس كربة الفرد.

يا نفس! الحق مرّ والصادع به معذب، وصاحبه أبداً هدف لطعن الطاعنين، ومن يحاول إصلاحاً وتجديداً فهو عرضة للمصفقين والمصفرين... أنت يا نفس لم تحدي وحُسِدتِ، ولم تشمتي وشُمت بك، وإلى هذا كنت تهللين بسقوط المنافقين والمتجسسين، وتتهللين يوم يدب التمزيق في أموال جمعت ببيع المروءة وفساد الذمة.

أنتِ ما عاديت إلا مأفون الرأي، وما شاكست إلا زعانف الحشوية، وما تأففت إلا من زبانية السياسة، وإذا غلوت في القضاء على غلوائهم فعذرك كونك من الآدميين، يجوز عليك ما يجوز عليهم من ضعف وغلط، والتيار قد يقذف بالواقف في جريته إلى مخاضات لا يختارها. كرهتِ يا نفس التعصب والعصبية، وحاربت الجهل والأمية، ومقتِّ الحزبية والجمعيات السرية، وتفانيت في الدعوة إلى الاستقلال وحب القومية، ودعوت جهرة للعرب والعربية والإسلام والمدنية العربية.

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
الجمهورية العربية السورية مجمع اللغة العربية

عاشرت أجيالاً ثلاثة : كان في الأول معلموك ومؤدبوك ، وفي الثاني إخوانك ومعارفك ، وفي الثالث المستحسنون والمستهجنون لعملك ، وكان جيلك الأول خير أجيالك لما تخلله من آمال وأحلام وبشارات بما كنت ترتجين في دنياك من استفاضة الصيت وإرادة النفع .. وتعرضت للهلاك غير مرة فنجوت لا بحسن حيلتك بل بقضاء وقدر ، وأدركت بأخرة أن ليس في العالم أمس واليوم وغداً غير التكرار ، وأن البشر في بلاء ومحنة . فإذا خرجت من هذه الفانية وحسناتك عِنْدل سيئاتك أو شالت الحسنات قليلاً في ميزانك فقد فزت فوزاً عظيماً ، فلا تسألي خالقك بعد الذي جرى لك إلا العفو والعافية » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net